الكتاب الأول

الفصل الأول

تمهيد

السودان من محمد على إلى سعيد

١ — السودان ومصر القديمة :

ان العلاقات بين مصر والسودان كائنة منذ القدم . يقول الأستاذ رايزنر : « ان البلاد التى كان يسميها القدماء (الأراضى الجنوبية) كانت تشمل جميع منطقة النفوذ المصرى غير المحددة الممتدة شطر أفريقيا الوسطى والشرقية . وتدل النقوش على أن أهل هذه المنطقة كانوا من الرجال الحمر الذين يقطنون بلاد (بنت) الشهيرة الواقعة على ساحل الصومال ، والرجال السود فى البلاد الجنوبية ، والنوبيين فى وادى النيل ، والليبيين فى الصحراء الغربية والبدو فى الصحراء الشرقية [١] » .

وقد نجح ولاة مصر من أوائل حكم محمد على (١٨٢١) الى آخر حكم اسماعيل فى رد الحدود القديمة الى السودان المصرى . وانتشر فى عهدهم كما انتشر قديما نفوذ المدنية المصرية فى أرجاء تلك « الأراضى الجنوبية » فكان النيل والبحر الأحمر ناقل المدنية الفرعونية تارة والمدنية العربية طورا الى هذه الأقطار . كتب جونستون : « أيا كان الأمر وسواء أكانت

(١) Sudan Notes and Records, V. I. 1918.

التجارة المصرية أو السيطرة المصرية قد اتصلت أو لم تتصل بطريق مباشر بتلك الأصقاع المحيطة بمنابع النيل فان نفوذ المدنية المصرية القديمة قد تغلغل فى أفريقيا السوداء . واذا استثنينا بعض النباتات والحيوانات الأليفة التى جلبها البرتغاليون من البرازيل أو التجار الأسيويون من الهند فان بقية الحيوانات والنباتات قد أتت كلها من طريق مصر . ومن مصر أيضا أتى التفكير فى صنع القوارب المركبة من ألواح الخشب ، كالقوارب التى يستعملها سكان أوغندة ، ورسم الآلات الموسيقية الراقية المجردة من تلك البساطة البدائية التى نجدها فى الطبول والبوقات المتخذة من قرون بقر الوحش . ولا شك أن أعواد أوغندة هى عين الأعواد التى تبدو صورتها على الآثار المصرية . ومما يدعو الى الدهشة حين نطالع وجوه الباهيما (أرستقراطية حامية السحنة منتشرة فى غرب أوغندة ، والأونيورو ، وطورو ، وفى الجنوب الشرقى من بحيرة فكتوريا والشمال الشرقى من بحيرة تانجانيقا) أن نرى وجوها مصرية بحتة فى هيئتها وملامحها ولونها الذى لا يكاد أحيانا يتميز بسمرته [1] »

٢ — السودان ومصر فى السياسة الدولية :

كان محمد على (١٨١١ — ١٨٤٩) أو نابليون الشرق يريد توطيد الامبراطورية السودانية فى حدودها القديمة التاريخية والجغرافية ولكن عمله الذى لم يتحقق كله قد قدر له أن يتم على يد حفيده اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) . وقد كان هذان العاهلان فى الوقت نفسه يعملان على تحقيق استقلالهما التام ازاء تركيا من الناحيتين : القانون والواقع . ولكن أوروبا ما كانت بغافلة ، فمنذ سنة ١٨٢٦ فى ابان حرب المورة وقد بدأت مصر تلعب بأسطولها وجيشها دور دولة كبرى أخذ السياسى

---

(١) هارى جونستون (حماية أوغندة) مجلدان بالانجليزية . انظر الجزء الأول صفحة ٢١٠

النمسوى المحنك مترنيخ يحذر الدول من « قيام دولة افريقية جديدة ، باعتبارها خطرا طالمـا أعلن فى أوروبا أنه من أجل الأخطـار التى تتهددها [1] » .

وسواء اتجهت مصر فى توسعها صوب آسيا أو صوب أفريقيـا أو صوب الاثنتين معا كان لابد لها أن تلقى فى كل مكان « قدم انجلترا » — على حد تعبير محمـد على — وأوروبا . وهذا مايفسر لنا موقعـة ناوارينو (١٨٢٧) التى دمر فيها الأسطول المصرى على غرة ، والألب الدولى الذى أرغم مصر سنة ١٨٤٠ على استبقاء السيادة التركية وترك امبراطوريتها الأسيوية (بلاد العرب ، فلسطين ، الشـام ، كليكيا ، وجزيرة كريد) الى تركيا .

---

(١) بروكش أوستن (تاريخ انحطاط اليونان) فى خمسة أجزاء بالألمانية . انظر الجزء الخامس .

الفصل الثانى

السودان من ١٨٢١ إلى ١٨٦١

لقد حكم السودان منـذ فتحه حكام قادرون مصلحون . أولهم الميرالاى عثمان بك (١٨٢٥ — ١٨٢٦) ولكن هذا الوالى كان ظالما فعم القحط والبلاء البلاد فى أيامه وقد مات بداء السل فى أبريل سنة ٢٦ . وحسبه أنه أول من جعل الخرطوم مركزا له فنقل اليها أقلام الحكومة والمخازن والأشوان وصارت من ذلك الوقت عاصمة السودان .

وقد خلفه فى الولاية محو بك (١٨٢٦) فبقى بضعة أشهر وكان رجلا عادلا وهو أول من فكر فى اشراك الأهلين أى السودانيين فى حكومة بلادهم اشراكا فعليا ، وقد هدته حصافته وذكاؤه الى الاستعانة برأى الشيخ عبد القادر ود الزين « وكان اذ ذاك شيخ خط فقلده شياخة قسم الكوع وكساه كسوة فاخرة » وقد بنى محو بك بناية خاصة للادارة الحكومية فى الخرطوم .

خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٩) أول حاكم نظم السودان وأسس مدينة الخرطوم وأقام فيها المنشآت وعمل على تعمير البلاد وارجاع السكان الذين هجروها فى عهد الدفتردار وعثمان بك . يروى أنه لما حضر واليا على السودان (يونيه ١٨٢٦) استقبله محو بك فى أم درمان وخلا به مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه اليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها أهل الرأى فخذ برأى هذا » ثم توجه الى القاهرة واجتاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محو بك وقرب اليه

الشيخ عبد القادر ثم جمع مشايخ البلاد وسألهم أن يختاروا شيخا لينوب عنهم لديه فى تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان به على تعديلها وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

وقد ذهب فى بداية ولايته الى سنار وتفقد أحوالها وما أصاب أهلها من قحط فجمع هناك مجلسا من رؤساء الادارة ، وقد سجل محضر اجتماع ذلك المجلس الكبير فى ٨ محرم سنة ١٢٤٢ هـ (١٢ أغسطس ١٨٢٦) فى تقرير طويل بعث به خورشيد باشا الى محمد على ، وهذا التقرير (سجلات القلعة القديمة) يبين عن جميع عيوب الادارة السابقة من اهمال وظلم فى جباية الضرائب وفساد فى الادارة وقد كان اقليم سنار يبابا بعدما جرده القحط وخف آهله فلم يبق فى ١٤٥ قرية الا ٥٩٩ قطينا وكانت المجاعة والهجرة والوباء قد فعلت فعلها فى سكانه ، ولم يكن من الميسور تحصيل الضرائب من قوم مدقعين . وقد قرر المجلس وضع حد لهذه الحال وتشجيع الزراعة ببناء السواقى لرى الأرض وايجاد نظام جديد للضرائب يتناسب مع الحالة العامة ومقدرة كل فرد وبالجملة العمل على نشر الثقة والطمأنينة حتى يعود المهاجرون وتعود الأمور الى مجاريها .

وقد عمل خورشيد منذ سنة ١٨٢٦ على تنفيذ ذلك البرنامج الاصلاحى الذى وافق عليه والى مصر وبادر بارسال ١١٨ اخصائى لتعليم سكان سنار والسودان زراعة الأرض كما بادر بارسال رؤساء عمال لنشر الصناعة ومبادئها وخصوصا صناعة الفخار وبناء السفن .

ومن أجل أعمال خورشيد باشا منشآته بالخرطوم . كانت هذه المدينة قبل أن يستوطنها المصريون بضع عشش للصيادين مبعثرة بالقرب من ملتقى النيلين . فجعل فيها الحاكم المصرى مركز الادارة العامة للسودان وأوجد الثكن والترسانة والمبانى العامة المشيدة بالآجر والرياض

وحدائق الخضر والفاكهة . وهو أول من اجتذب السكان الى المدينة وحثهم لأول مرة على بناء منازلهم بالطوب المجفف فى الشمس وكانوا لا يعرفون قبل ذلك الا البناء بالقش وأعواد الشجر وجلود البقر .

وقد حدثت رحلة والى مصر محمد على الى السودان فى أواخر سنى حكم خورشيد باشا (١٨٣٨ — ١٨٣٩) بعد أن سلخ السبعين فكانت رحلة كلها يمن واسعاد .

ظهر وصف هـذه الرحلة بالتركية فى وقائع ٦ صفر سنة ١٢٥٥ هـ (٢١ أبريل سنة ١٩٣٩) . وهذا أهم ما جاء فيه :

« بدأ سموه الرحلة فى ١٥ أكتوبر سـنة ٣٨ . فبلغنا الخرطوم فى ٦ نوفمبر .

« مدينة الخرطوم ، العاصمة الحالية لسنار ، تقع على درجة ١٦ من خط العرض على بعد ربع فرسخ من ملتقى فرعى النيل . ولم تكن من خمس عشرة سـنة خلت الا مجموعة من عشرة أكواخ « توكول » فلما رأى خورشيد باشا حسن المكان وطيب هوائه دعا أسرا عـديدة من سنار وبعض عرب الصحراء الى الاقامة فيه وبناء منازلهم . وقد أصبحت الخرطوم اليوم مدينة مكونة من خمسمائة بيت مشيد بطريقة نظامية ، ومستشفى ، ومخازن وأشوان كبيرة وحدائق مختلفة ينبت فيها وينضج فى الشتاء التين والعنب ...

« (واد مدنى) مدينة عظيمة بسبب السوق التى تقوم فيها كل عام وتدوم ثلاثة أشهر . وسكانها ثلثمائة أسرة جيدة المسكن . وهى كالخرطوم لها ثكنتها ومستشفاها وشونها .

« و (سنار) كانت مقر الملك فى مملكة سنار القديمة . ومنازلها مبنية بالآجر وهى فى مجموعها حسنة المنظر .

« غادر سمو الوالى الرصيرص فى ١٠ يناير فوصل الى جبال فازوغلى فى الثامن والعشرين منه .

« وينقسم سكان السودان الى ثلاث طبقات : سكان القرى ، والبدو أو سكان الصحراء ، وسكان الجبال . وللقرويين والبدو لون نحاسى ، يشبهون الأحباش فى هيئة أجسامهم وملامحهم ، وهم مسلمون على مذهب ابن مالك . أما الجبليون فهم وثنيون يعبدون الأشجار ، وهم من جهلهم فى ليل لائل لا يكادون يميزون بين الأرض والسماء .

« ومن عاداتهم أنهم عند الغزو تتعالى صيحاتهم الحادة ، ويرجحنّون فى المعارك ، وتصحبهم نساؤهم فى الحروب لحمل الماء والزاد . وهم يبيعون أسراهم ، ولا يهاجمون فى الليل أحدا . وفى النهار شجعان مغامرون لا يرحمون ، يسرق بعضهم بعضا محاصيل الذرة والنساء والأطفال يتجرون فيها وقد أعلن سمو الوالى فى كل مكان تحريم الغزوة ...

« ومن فازوغلى ذهب الوالى الى فازانجورو ثم هبط من جبال فازانجورو فى ٣١ يناير الى السهل حيث يصب خور العادى فى النيل الأزرق ، وقد اختار هذا الموقع لانشاء مدينة جديدة .

« وأرض سنار غاية فى الخصب والجودة .. وان تكن الزراعة فيها لا تزال مهملة كل الاهمال . وقد توجد فى دنقلة بعض الآلات الزراعية ، ولكن فى البلاد الواقعة فوق هذه المنطقة يكتفى الزراع باثارة الأرض بقطع خشبية غالظة . وقد وزع الوالى مائة فدان من الأرض علاوة على أجرهم الثابت على المهندسين المصريين الذين اشتغلوا فى ريف مصر وصعيدها وخبروا الزراعات المختلفة ، وقدم لهم الآلات والحيونات الضرورية ، ثم ألحق بكل منهم طائفة من شباب كل اقليم سودانى ، ليتعلموا فى كنفهم شؤون الزراعة ، وأعفاهم من الضرائب خمسة أعوام . ولاشك أن هذه المزارع النموذجية سيعم نفعها وسيكون أهم ما ينبت فيها قصب السكر والقطن والنيلة ...

« ثم جمع الوالى بعد ذلك حوله بعض كبار المشايخ وخلع عليهم الخلع وخطب فيهم ونصحهم ان يقتدوا بالشعوب الأخرى التى كانت متوحشة ثم تمدنت وانتقلت من حالة الخشونة والجهل الى حالة الأنس والمعرفة .

« أبهر الوالى فى خطابه فأعلن جميع المشايخ على الفور رغبتهم فى ارسال أبنائهم الى مصر ، وكان أكبرهم الشيخ عبد القادر لا ولد له فما عتم أن التمس ارسال ابن أخته .

« وأعلن الوالى حرية تجارة النيلة التى يغزر زرعها فى مديريات دنقلة وبربر وأمر الحاكم العام بتقديم الآلات اللازمة وكل مالابد منه لتقدم هذه الزراعة .

ثم قفل راجعا فى ٣٠ ذى العقدة (١١ فبراير) وعاد الى القاهرة فى ١٤ مارس سنة ٣٩ .. »

أحمد باشا أبو ودان [1] (١٨٣٩ — ١٨٤٤) . وطد أحمد باشا الأمن فى ربوع السودان ونظم الدواوين والادارة وعمل على ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وشجع الملاحة وبنى سفنا كثيرة كانت نواة البحرية التجارية فى السودان ، ومن أكبر مآثره احتلال اقليم التاكه فى سنة ١٨٤٠ وتوسيع الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى ، وقد قصد بجيشه بلاد الحلانقة وكانت اقامتهم على نهر القاش فدانوا له بالطاعة وأمّر عليهم محمد إيَلَه . فلما رأت قبيلة الهدندوة ذلك ، وهى قبيلة ذات بأس وعدد وشَحَنٍ على الحلانقة ، تمردت عليه وجمعت جموعها شمالى كسلا فى غابتى وهياى والكلتياب فحول أحمد باشا مجرى القاش فعطشوا ويبس الزرع والشجر فأشعل النار فى الغابتين فذعروا فلحق بهم وأعمل فيهم القتل وأسر شيخهم فدانوا له بالطاعة وأخذ منهم الجزية .

(١) ذكر نعوم شقير بك فى « تاريخ السودان » ان رحلة محمد على حدثت فى أيام أحمد باشا أبو ودان أى فى المدة من ١٥ أكتوبر سنة ٣٩ الى ١٤ مارس ١٨٤٠ والحقيقة أنها حدثت فى سنتى ٣٨ و ٣٩ كما ذكرنا .

وعاد أحمد باشا الى الخرطوم بعد أن ولى مديرا على كسله ثم أرسل البكباشى الياس أفندى الى بنى عامر فقاتلهم وأخضعهم وضرب عليهم الجزية .

وبعد فتح التاكه قسم السودان الى سبع مديريات : فازوغلى وسنار والخرطوم وكسله وبربر ودنقلة وكردفان .

أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ — ١٨٤٥) — قال نعوم شقير انه لم يمكث الا قليلا بالخرطوم حتى عاد أهل التاكه الى الثورة فجرد جيشا لمحاربتهم وسار لقتالهم ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ أحمد أبو سن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخرطوم فضرب رقابهم ، وفى أواخر سنة ١٨٤٥ عاد الى مصر ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين فأكرمهما محمد على وأعجب بذكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ماكنت أظن أن بلادا ليس فيها شيء من أسباب التمدن والتهذيب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل » .

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١) — عمل على اصلاح الادارة التى اختلت فى عهد سلفه خالد باشا فأزال المظالم ونشر العدل وهو الذى جدد ديوان الحكمدارية أو سرايها فى الخرطوم فبقى الى الثورة المهدية وأنشأ مدرسة أميرية برئاسة رفاعة بك الطهطاوى وبيومى بك اللذين نفاهما عباس باشا وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة .

على باشا شركس (١٨٥٥ — ١٨٥٧) — أهم حوادث ذلك العهد اثنتان الأولى انتشار الهواء الأصفر وموت خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار وقد خلفه ابنه الزبير فبقى فى الخرطوم زمانا ثم ذهب الى مصر فعين معاونا فى نظارة الداخلية .

والثانية زيارة سعيد باشا للسودان وقد اعلن سعيد باشا رغبته فى ترك السودان ولكن السودانيين خشوا مغبة الترك وعودة الفوضى الى البلاد فحاولوا دون تحقيق هذه الفكرة الشاطة واكتفوا بالمطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات العاجلة . وقد أنقص الوالى الضرائب وأنفذ اجراءات كثيرة مطابقة لرغبات السكان وكان من أهم ما قام به تعيين أراكيل بك نوربار حاكما للسودان (١٨٥٧ — ١٨٥٩) ولاشك أن تعيين مسيحى فى ذلك المنصب دليل على روح التسامح عند الوالى وتقديره لما اشتهر به أراكيل من حزم وعدل وكفاءة فى الادارة وتصريف الأمور وقد تجلت هذه الصفات والمواهب حين همت طائفة من السكان بالثورة على هذا التعيين وسرعان ما انقادت له الأحوال واستقرت .